إسلاميات شوقي ضيف

د. النعمان القاضي

لم تقتصر مشاركات شوقي ضيف الإسلامية على التصدى للموضوعات الإسلامية الخالصة - تأليفًا وتحقيقًا - كالتفسير والقراءات والمغازى والسير، وإنما سبق تصديه لتلك الموضوعات ولحقها عناية بارزة بالاتجاه بمختلف دراساته العديدة - على تنوعها - اتجاهًا إسلاميًا أصيلًا.

ومن ثم كان لزامًا على من يريد تقييم مشاركات عالمنا الجليل الإسلامية، أن ينظر فى سائر أعماله وهو أمر يبدو صعب المنال، نظرًا لخصوبة إنتاجه وكثرته وتعدده، إذ ظل على مدى أربعين عامًا أو تزيد - ولا يزال أطال الله فى عمره - يهب من نفسه بجد وإخلاص وتفان، حتى أصبح مؤرخ الأدب العربى العتيد، وأستاذ الدراسات الأدبية الذى يجمع على إمامته كل المشتغلين بالثقافة العربية فى جامعاتنا، وفى الجامعات العربية دون منازع، وصارت كتبه ودراساته المرجع المعتمد عند كل من يتصدى لفرع من فروعها بالدراسة والبحث.

وقد ارتبط شوقى ضيف بالاتجاه الإسلامى النقى منذ يفاعته، عندما درس فيها قبل الجامعة فى الأزهر، ودار العلوم، فنهل من المنابع الإسلامية الصافية فضلًا عن نشأته فى بيت علم ودين. وقد وقر فى إدراكه منذ ذلك الوقت أن الإسلام هو البلورة التى تكونت من حولها المعارف المختلفة من تلك العلوم المساعدة، أو الأدوات المعينة من اللغة وعلومها، والأدب وفنونه، والبلاغة والنقد وفروعها.

وفى الجامعة أتيح له أن يقف على تلك المحاولات الجديدة، التى كان يتعاطاها جيل الرواد بمنهج جديد، بإشراف كوكبة من المستشرقين على أختلاف منازعهم وأغراضهم ونواياهم، إلا أن هذا المنهج الجديد الذى كان يؤكد الفصل بين الدرس الأدبى والدين، كما كان يصطنع الشك وسيلة للمعرفة ولتنقية التراث، ويقارن بين الدرس الأدبى كما يجب أن يكون فى الجامعة، والدرس الأدبى فى الأزهر ودار العلوم، لم يكن فى وجدانه وفكره من أن الإسلام هو المنبع الأصيل، الذى يرفد جميع فروع الثقافة العربية مهما اختلفت وتنوعت.

من هذا المنطلق بدأ شوقى ضيف حياته العلمية فى الجامعة، وأخذت أبحاثه تترى ما بين تأريخ للأدب العربى، وتحليل لظواهره، ورصد لتطوره والتجديد فيه، وتأريخ لعلوم العربية من نقد وبلاغة ونحو، فضلاً عن أعماله الإسلامية الخالصة فى التفسير وعلومه.

وقد تصدى شوقى ضيف فى تأريخه للأدب الذى استغرقته سلسلة، لم تتم حلقاتها بعد لهذا المنهج، فدحضه، واستبدل به منهج المحدثين المسلمين فى جرح الرواة وتعديلهم، وصحح بهذا كثيرًا من الشعر الجاهلى الذى أنكره المستشرقون من أمثال مرجيلوث، ونولدكة، وبلاشير، وأضرابهم وتلاميذهم، وتجرد فى كتابه «العصر الجاهلى» لتوثيق أشعار الجاهليين الأعلام شاعرًا شاعرًا، وقصيدة قصيدة، وفقًا لهذا المنهج الإسلامى الذى عاد فبسطه بسطًا مفصلا فى كتابه «البحث الأبى: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره».

وكان قد وجه واحدًا من أبرع تلاميذه، هو الدكتور ناصر الدين الأسد لمعالجة قضية الانتحال فى رسالته للدكتوراه، فانتهى إلى ما انتهى إليه أستاذه فى كتابه النفيس «مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية».

وفى الجزء الثانى من موسوعته فى تاريخ الأدب «العصر الإسلامى» أكد ما سبق له أن قرره فى دراسته المبتكرة عن «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» من فساد الفكرة التى أشاعها المستشرقون وتلاميذهم من أن الطبقة التى كونها الشعر فى عصر بنى أمية، تشبه تمام الشبه الطبقة الجاهلية، وإن لم تتحد معها فى خصائصها الفنية تمام الاتحاد، وهى فكرة خبيثة قصد بها إهدار أثر الإسلام فى الشعر، وسلب العرب المسلمين أية قدرة على الإبداع والتطور، ووفقًا لهذه الفكرة فإن العرب استمروا ينظمون شعرهم بعد الفتوح الإسلامية، ونزولهم فى الأوطان والأقاليم الجديدة خارج الجزيرة العربية على شاكلة ما كان ينظمه أسلافهم، حتى أرسل الله لهم الموالى فى العصر العباسى، فطوروا لهم صورة شعرهم، وجددوا فى إطارها وخطوطها وألوانها فنونًا من التجديد!

وقد ناقض شوقى ضيف هذه الفكرة على أسس نظرية جديدة، لا ترى العرب بدعًا بين الأمم والشعوب، ولا تراهم أحجارًا ينقلون من مكان إلى مكان، ومن عصر إلى عصر، ومن طور بداوة إلى طور حضارة دون أن يتأثروا بما يصادفهم من مؤثرات حضارية، وغير حضارية. فقد تبدلت نفسية العربى، لتبدل الحياة من حوله ووقع تحت مؤثرات دينية، وحضارية، لم يكن يعرفها فى جاهليته، وفرق بعيد بين نفسية وثنى، ونفسية مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، ويستشعر السعادة فيما يؤديه من تقوى وعبادة، وفرق بعيد بين عقلية بدوى، يعيش معيشة بسيطة فى الخيام، لا يخضع لسلطان سوى سلطان القبيلة المحدود، وعقلية حضرى يعيش فى مسكن مستقر

البنيان، ويخضع لضرورات الحياة فى الدول والمدن، ويختلف إلى دروس العلماء وحلقاتهم فى المساجد.

وفى «العصر الإسلامى» عاد شوقى ضيف ليرجع بأصول هذا التطور والتجديد الذى لحق بالشعر إلى ظهور الإسلام، الذى كان ثورة فى جميع أقطار الحياة العربية، وبخاصة فى جوانبها الأدبية، إذ كانت معجزته معجزة بيانية تمثلت فى القرآن الكريم الذى تحدى به العرب أهل اللسن والبيان فأعجزهم وبهرهم، وكان قد وجه كاتب هذه السطور إلى معالجة القضية فنهض بذلك فى بحثه للماجستير عن «شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام»، وانتهى إلى نتيجة تكمل ما انتهى إليه أستاذه ويؤكده، وهى أن الشعر العربى قد بدأ رحلة تطوره، والتجديد فيه اعتبارًا من ظهور الإسلام، وأن الإسلام لم يعق الشعر، ولم يصادمه، ولم يتسبب فى إضعافه كما كان شائعًا فى بعض البيئات، بل إن الإسلام أفسح للشعر، وشجع عليه وأذكت فتوحاته جذوته.

وقد أخذ يؤرخ فى «العصر الإسلامى» للحركات السياسية والفكرية والكلامية التى ظهرت فى عصر بنى أمية، من شيعة، وخوارج ومرجئة، ومعتزلة، وجبرية، مؤصلا لها بجميع شعبها وراصدا لأثر الإسلام فيما عبرت به عن مقولاتها شعرًا ونثرًا، فرد حجاج الكميت عن الزيدية فى هاشمياته، إلى التأثر بالقرآن الكريم والفقه الإسلامى، وتجاوز شعراء الفرق إلى غيرهم باحثًا عن أثر الإسلام فى شعرهم حيث أرجع عفة الشعراء العذريين إلى الإسلام، وما أحدثه فى نفوسهم من تقى ورقة والتزام، ومن أطرف دراساته التأصيلية دراسته عن الشاعر ذى الرمة الذى كلف بوصف الطبيعة الصحراوية، فقد عقد له فصلاً فى «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» أرجع فيه كثيرًا من خصائصه الفنية إلى التأثر بروح الإسلام، سواء فى مديحه أو هجائه أو وقوفه على الأطلال، عندما يبكى، ويستبكى على آثار المسجد الذى كانت تتخذه القبيلة، وإصراره على ألا يدع فرصة لسهام الصائد، أو كلابه لتصيد حيوانات الصحراء التى أضمر لها الحب والإشفاق نتيجة للإنسانية التى بثها الإسلام فى نفسه، ومن هذا أيضًا قدرة ذى الرمة على الربط بين الصور المتباعدة، وهى قدرة تدل دلالة قاطعة على أنه كان يحس بالكون إحساسًا كليًّا لا مكان له ولا زمان، وما ذلك إلا نتيجة نظرة عميقة فى الكون هيأها له الإسلام، وكذلك أرجع فن النقيضة الذى ظهر على أيدى الفرزدق وجرير والأخطل إلى أغراض الفخر، والهجاء، والمديح القديمة بما حباها به المجتمع الإسلامى الجديد فى الأمصار فى ظل الدولة الجديدة.

وفى أجزاء موسوعته لتأريخ الأدب، التى تناولت العصور الأدبية اللاحقة، سواء فى «العصر العباسى الأول»، أو «العصر العباسى الثانى»، أو «عصر الدول والإمارات» كان حريصًا على أن يجعل النشاط الأدبى انعكاسًا للثقافة الإسلامية، وما كان ينتابها من تأثرات حضارية مختلفة

فارسية فى العصر الأول، وتركية فى العصر الثانى، بل إنه لم يغفل أثر تلك التيارات الفكرية التى امتزجت بالثقافة، فاقترنت بالاحتكام إلى العقل فى العصر العباسى الأول، مما أدى إلى سيادة النزوع الاعتزالى وغلبته على الأدب، بينما انحسر أثره على الأدب بعد غلبة الاتجاه السنى منذ عهد المتوكل فى العصر العباسى الثانى.

وكان إيمان شوقى ضيف بوحدة الثقافة الإسلامية، والأدب العربى عاصمًا لتأريخه من الانحراف إلى شعاب الإقليمية، فجاء أنه أرجع كل ما ظهر فى بيئة الأندلس العربية من نتاج فنى، وأشكال فنية مستحدثة إلى التأثر بنتاج المشارقة كرده الموشحات إلى المسمطات.

وقد ترجم شوقى ضيف للشعراء والكتاب على اختلاف عصورهم، واتجاهاتهم فى موسوعته تلك وفى غيرها من دراساته، وكان منهجه فى الترجمة لهم يقوم على التحرِّى الدقيق لحيواتهم، والاستقراء الفاحص لشعرهم ونثرهم، والاحتكام إلى المصادر الأصيلة دون أن يأبه لما راج عن بعضهم، ووسم به من الزندقة والإلحاد والتنكب عن طريق الإسلام القويم، ونتيجة لهذا المنهج صحح عقيدة أبى العتاهية، ورد زهده إلى أصول إسلامية، ونسب زندقة أبى نواس إلى الظرف، ودحض ما أشيع عن تلمذة أبى العلاء للفكر اليونانى، وأثبت أنه هبة من هبات الفكر العربى، وأن زهده إسلامى تابع فيه الفقهاء المسلمين فى فكرة التعبد، كما أثبت توسطه بين القائلين بالجبر، والاختيار وأنه كان يؤدى الفرائض الدينية، وأنه تابع المعتزلة فى وجوب العدل على الله وتنزيهه عن التجسيم، وأنه كان يؤمن بالملائكة والجن والشياطين، وأن القول بإنكاره النبوات خطأ وأنه مدح الرسول ﷺ، وأنكر على الزنادقة الملحدين، كما آمن بالبعث وبسؤال القبر وبالحساب والعقاب والثواب فى المعاد.

وفى فصل آخر من هذا الكتاب «فصول فى الشعر ونقده»، تحدث عن ابن الفارض ومجاهداته الروحية وانتهى إلى أن تصوفه يستمد من المبادىء الإسلامية، سواء فى ذلك زهده، ومجاهداته الروحية، ونسكه وذكره وتوكله وتوبته، ومحبته، وانمحاؤه فى الله، وعلمه اللدنى، ومن ثم فإن إمعانه فى الزهد لا يتنافى مع تمسكه بالشريعة، وإن رمزيته الصوفية التى يتضمنها تغنيه بالحب الإلهى، إنما هى فى الموضوع وليست فى الكلمات، وإنه - خلافا لمن درسوه - مؤمن بوحدة الشهود، منكر لوحدة الوجود وللحلول، وإنه ينمحى فى الحقيقة المحمدية انمحاءه - فى الله.

وفى فصل آخر من نفس الكتاب عقده للبوصيرى، وللحقيقة المحمدية فى مدائحه النبوية كشف عن أن كرامات المتصوفة جميعًا ليست إلا قطرات من ينبوع الحقيقة المحمدية الأزلية، التى ترسبت فى وجدان المسلمين، نتيجة لكون الرسول ﷺ هو المثل الأعلى للإنسان الكامل فنوره هو المشاهد فى كل نور، وهو النور السارى فى كل الوجود، إذ علمه لدنى ومعجزته

القرآن، وخلقه مجاهدة النفس عن هواها، وهكذا فالروح المحمدى أصل الوجود.

وفى الكتاب ذاته خصص فصلا لشوقى ومكانته فى الشعر الحديث - فضلاً عن كتاب آخر وسمه «بشوقى شاعر العصر الحديث» اهتم فيه بإسلامياته وخص منها مدائحه النبوية بالذكر، فوقف عند معارضته لبردة البوصيرى وإبداعه فيها، الأمر الذى دعا الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر آنذاك، ليكتب لها شرحًا بنفسه، وفى تلك القصيدة دافع شوقى عن الإسلام دفاعًا مجيدًا، ناقض فيه ما يردده أعداؤه من أنه انتشر بحد السيف، إذ إنه فتح بالسيف بعد القلم، وبعد أن أعياه انحسار الشر سلميًا، وكيف أن شوقيًا ظل يتغنى بهذا اللحن الدينى طوال حياته على نحو ما يلقانا فى قصائده، التى يحيى بها ذكرى رسول الله ﷺ من مثل همزيتـه المشهورة، وأنه عبر فى غير قصيدة عن الأخوة الصادقة بين العرب جميعًا مسلمين ومسيحيين، وأشاد بالمسيح مرارًا وبرأه وتعاليمه من الأمم المسيحية المستعمرة ومظالمها فى الشعوب، مصورًا ذلك فى قصائد تهز القلوب.

وفى كتابه «دراسات فى الشعر العربى المعاصر» الذى تناول فيه عددًا وفيرًا من شعراء وطننا العربى الإسلامى، أفرد فصلاً للشاعر الإسلامى أحمد محرم وإلياذته الإسلامية أو ما عـرف «بديوان مجد الإسلام»، قرر فيه أن السبب فى عدم وجود مـلاحم عربيـة شبيهة بـالإلياذة والأوديسا، المنسوبتين لهوميروس، لا يرجع إلى أن العرب لم تكن فى تاريخهم حروب هائلة مع الفرس كذى قار، ومع أنفسهم كالبسوس، فضلاً عن حروبهم الإسلامية فى الشرق والغرب، وكان لهم فيها أبطال لا يقلون شأوًا عن أخيل، وهكتور فتكا وشجاعة، وإنما هو الشاعر العربى الذى لم يتعد غالبًا حدود نفسه، ولم يشأ أن ينظم سوى أغنياته التى يعبر فيها عن لحظة له هنيئة، وأخرى حزينة، على الرغم من أن شعراء من أمثال ابن عبد ربه الذى نظم فى حروب عبد الرحمن الناصر، ولسان الدين بن الخطيب الذى نظم التاريخ حتى عصره شعرًا، فضلاً عن نظم سيرة الرسول ﷺ وقصتىْ إسرائه ومعراجه شعرًا، فإن هذا النظم إنما يدور فى إطار المتون، إذ تحصى فيه المعلومات التاريخية إحصاء، وتنظم الحوادث فى أسلاك من الشعر دون أية إضافة لروعة الخيال، أو تمثيل صحيح لحقائق التاريخ.

وهكذا فإن العربية لم تعرف الشعر القصصى بمعناه الغربى، وإنما عرفت ضروبًا من نظم التاريخ، تشبه أن تكون متونًا للحفظ والتسميع إلى أن اتصلنا بأوربا وآدابها فى القرن الماضى واطلع شعراؤنا على الملاحم الكبيرة عند القوم، ونقل سليمان البستانى إلياذة هوميروس إلى العربية شعرًا فرأى شعراؤنا تحت أعينهم هذا اللون من الشعر القصصى، وما زال شعراؤنا يتطلعون إلى مجاراة هذا العمل، ومحاكاته حتى نهض أحمد محرم يحقق لهم الأمل المنشود، فاختار حروب الرسول ﷺ موضوعًا لإلياذته الإسلامية.

بهذا العرض الدقيق قدم أستاذنا الجليل لإلياذة محرم الإسلامية إلا أن فرحه بهذا الإنجاز لم يلبس صوت محرم عنده بأصوات أصحاب الملاحم، فقرر بعد عرض الإلياذة، وتوضيح سماتها وخصائصها، أن شاعرنا الإسلامى لا يكتب ملحمة وإنما يكتب أو ينظم سيرة الرسول ﷺ، وفرق بين نظم السير، والشعر القصصى فالأول عمل آلى، يقرأ الشاعر فيه التاريخ ويحوله شعرًا أو نظمًا، وهو لا يعالج حربًا ولا ملحمة بعينها، وإنما يتناول مجموعة كبيرة من حروبه يعرضها عرضًا تاريخيًا صادقًا، فيكون تاريخًا ولا يكون شعرًا، فإلياذة محرم إذن ليست سوى قصائد جمع بعضها إلى بعض، وتسميتها بالإلياذة لن تغير من مدلولها الحقيقى، فهو اسم لا يطابق مسماه، لا فى الشكل، ولا فى المضمون، وهى فى النهاية، ليست كما يظن حدثًا جديدًا فى أدبنا بل هى عمل مسبوق!

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا الجوانب الإسلامية فى أعمال شوقى ضيف الأدبية المختلفة سواء كانت فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث، فهو معنى بها فى تاريخه للأدب، وفى دراساته لظواهره، وفنونه، وأعلامه عناية منهج واتجاه.

* * *

وقد مكث شوقى ضيف يدرس القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، لطلاب قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بجامعة القاهرة بضع سنين، عنى فيها باتجاهات التفسير المتعددة على مر التاريخ، من تفسير مأثور أو أثرى يقوم على المأثورات المروية، إلى تفسير عقلى يتجه اتجاها اعتزاليا، أو شيعيا، أو صوفيا، أو فقهيًا تشريعيا، أو لغويا نحويا، أو بلاغيا بيانيا، أو علميا يعنى بتفسير ظواهر الكون.

وفى تلمسه للتفسير الحق كان يستعرض لتلاميذه تلك الاتجاهات على اختلافها راصدًا ما يعتورها من نقائص، فالتفسير المأثور أقحم عليه كثير من الإسرائيليات، التى تتصل بالحديث عن بدء الخليقة، وعن قصص بعض الأنبياء من مثل مقدار سفينة نوح، ونوع الخشب المصنوعة منه، وأسماء الطيور، التى أحياها الله لإبراهيم الخليل، والجزء الذى ضرب به القتيل من بقرة بنى إسرائيل وأسماء أصحاب الكهف، وعدتهم وأحوالهم إلى غير ذلك مما ينبغى التحرز منه وتنحيته عن تفسير الكتاب العزيز.

أما ألوان التفسير الأخرى كتفسير المعتزلة والشيعة والصوفية، فإن أصحابه يعمدون إلى الاتساع فى تأويل الآيات، حتى ليعدل به أحيانًا إلى دلالات إشارية لا تحتملها الألفاظ ولا يؤديها ظاهرها الصحيح، إذ يصرفون ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة، إلى معان بعيدة تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم، وهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة، غير أن القرآن الكريم

لا يتضمنها، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من حكم العقل على النقل عند المعتزلة مثلًا، وتقرير حقوق لآل البيت فى الخلافة كما يفعل الشيعة، والقول بوحدة الوجود أو وحدة الشهود، والفناء فى حقيقة الله كما يصنع المتصوفة، والاستدلال لما يدينون به من الأحكام والقواعد الشرعية كما يفعل الفقهاء، والاستشهاد على قواعدهم النحوية والصرفية والبيانية إن كانوا من النحاة أو اللغويين أو البلاغيين.

وقد انتهى التفسير أخيرًا إلى الخوض فى المباحث العلمية والمكتشفات الحديثة، واتخاذ القرآن الكريم ذريعة لإثبات نظريات، علمية فى الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية، وهكذا أصبح التفسير ليس إلا لونًا من ألوان الإسقاط يقوم به المفسر على آيات الكتاب الحكيم حسب اتجاهه وتخصصه واهتماماته، مع أن الذكر الحكيم لم ينزل لبيان قواعد العلوم ولا لتفسير ظواهر الكون، وما ذكر فيه من خلق السموات والأرض والجبال والأفلاك والكواكب وغيرها إنما يراد به بيان قدرة الله وحكمته، وأن للوجود خالقًا أعلى يدبره وينظم قوانينه.

ولا ريب فى أن القرآن الكريم يدعو أتباعه دعوة عامة إلى العلم والتعلم للعلوم الرياضية والطبيعية والكونية، ولكن - كما يقرر شوقى ضيف - هذا شيء، والتحول بالقرآن إلى كتاب تستنبط منه النظريات العلمية شيء آخر، لا يتصل برسالته، ولا بدعوته إنه دين لهداية البشرية، يزخر بما لا يحصى من قيم روحية واجتماعية وإنسانية، بل هو دستور شامل لهداية البشرية وسعادتها فى الدنيا والآخرة، وحسب المفسر أن يعنى ببيان ما فيه من هذه القيم ومن أصول الدين الحنيف، وتعاليمه التى أضاءت المشارق والمغارب.

وبهذا الفهم لطبيعة القرآن ووظيفته، ووظيفة التفسير، يدفع شوقى ضيف كل هذه الاتجاهات القاصرة عن الوفاء بمهمة التفسير الحقة، ولا يجد اتجاهًا تفسيريًّا قمينًا بهذا سوى تفسير القرآن بالقرآن، وتأصيلًا لاتجاهه هذا يحدثنا فى مقدمته لكتابه «سورة الرحمن وسور قصار» عن منهج ابن تيمية فى التفسير، الذى عرضه فى مقدمته النفيسة عن أصول التفسير، وفيها حمل ابن تيمية على الإسرائيليات المدسوسة عن التفسير موافقًا فى ذلك أستاذه الإمام أحمد بن حنبل الذى قال بسبب من ذلك: ثلاثة لا أصل لها التفسير، والملاحم، والمغازى، وقد حمل ابن تيمية على تلك الاتجاهات التفسيرية المنحرفة عن الجادة، وخلص إلى أن خير طرق التفسير هى تفسير القرآن بالقرآن إذ أن ما أجمل فى موضع جاء مفصلًا فى موضع آخر، وما ذكر موجزًا فى آية جاء مفصلًا فى آيةأخرى، وإن لم يف القرآن الكريم أحيانًا بالمراد، رجع المفسر إلى الحديث النبوى، فإن الرسول ﷺ، فسر آيات القرآن الكريم كما يشهد لذلك قوله تعالى شأنه: ﴿وأنزلنَا إليكَ الذِّكر لِتبينَ للنَّاسِ ما نُزِّل إليهم﴾. ويضم المفسر إلى ذلك أقوال الصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ، وفهموا عنه التنزيل، وكذلك أقوال التابعين الين خالطوهم ووقفوا

منهم على معانى القرآن الكريم، ولا يقتصر ابن تيمية على ذلك وإنما يفتح الأبواب أمام المفسر، ليجتهد ويستنبط، ولكن بعد يكون قد استوفى العدة لذلك باستيعابه للذكر الحكيم، وآياته ومعانيه المتقابلة، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه، وبعد أن يتقن العربية، ويتعمق علوم الشريعة، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة، وقد طبق ابن تيمية منهجه هذا على بعض سور القرآن الكريم، وهى سورة النور وبعض قصار السور من جزء عم، كما خص سورتى المعوذتين برسالة مستقلة، وأفرد كتابًا لسورة التوحيد أو الإخلاص.

ويتحول تفسير كل آية من آيات هذه السور عند ابن تيمية إلى بحث فى مضمونها من خلال القرآن كله وهكذا، وقد تبعه فى منهجه تلميذه ابن قيم الجوزية فى كتابه «التبيان فى أقسام القرآن» وفى تفسيره للمعوذتين، حتى إذا جاء العصر الحديث اقتفى أثرهما، الإمام محمد عبده، فحاول على هدى قراءاته لهما أن يعرض لنا تفسيرًا دقيقًا بديعًا لجزء عم، خلصه من كل الشوائب العقائدية والإسرائيليات، ورفض فيه البدع والخرافات، واهتم بفهم معانى القرآن وما دعا إليه من الارتقاء بالروح عن طريق التهذيب الخلقى القويم، والنهوض بالمجتمع عن طريق توثيق التعاون، والتكافل بين الأفراد مع تقديم كافة الأسباب التى تحقق الكمال الفكرى والروحى، والاجتماعى الذى يطمح إليه الإنسان الحق.

هذه مصادر شوقى ضيف فى منهجه التفسيرى.ولسنا نعلم - فيما نعلم - أحدًا من المفسرين ودارسى علوم القرآن فى عصرنا الحديث، احتذى الشيخ الإمام فى منهجه التفسيرى سوى رجلين أتيح لهما ما اشترطه ابن تيمية من عدة المفسر، وهما المغفور له الشيخ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، كما يبدو ذلك من دراساته العديدة عن القرآن الكريم، ككتابه «مدخل إلى القرآن الكريم» وبخاصة كتابه «النبأ العظيم» الذى حاول فيه محاولة مبتكحرةفى دعم سياق السورة فى القرآن، وخص محاولته تلك بسورة البقرة، أما الرجل الثانى فهو شوقى ضيف الذى ضمن تطبيقه لمنهجه التفسيرى فى محاولته البارعة لتفسير سورة الرحمن وسور قصار.

وقد بدأت قصة هذه المحاولة عندما دعته صحيفة الأهرام فى عام ١٩٧٠، إلى المشاركة فى الاحتفال بشهر رمضان المبارك لعام ١٣٨٩هـ ببعض أحاديث دينية فرأى أن تكون مشاركته بعرض تفسير لبعض قصار السور، يتناول من خلال آياتها مضمون تلك الآيات فى سائر آى الذكر الحكيم، فنشر له عرض لسور الفاتحة والتوحيد والعصر، وقد وقع هذا العرض موقع استحسان من كثير من القراء، الذين كتبوا إليه بأن يمضى فى عرض سور أخرى، وتفسيرها على نفس المنهج، واستحثه نفر من تلاميذه، وأصدقائه أن يعرض لسورة النعم الدنيوية، والأخروية بخاصة، وهى سورة الرحمن.

وقد نهض بهذا العمل وأضاف إليه تفسيره لسور الفاتحة، والتوحيد، والعصر، التى نشرت بالأهرام، وزاد عليها تفسيره لسور الملك والأعلى والتكوير، والماعون والفلق، وهكذا جمع تسع سور، تتضمن فى طياتها أصول العقيدة الإسلامية ومبادىء الإسلام الخلقية، والاجتماعية بسطها جميعًا من خلال آيات الذكر الحكيم كله.

فهو يعمد إلى الآية، فيتخذ منها محورًا يهديه إلى مضمونها العام فى سائر القرآن، ومن ثم فإننا لا نبعد إذا قلنا إن تفسيره لسورة الرحمن ولتلك السور القصار، يغنى عن تفسيره لبقية القرآن الكريم إذ استطاع - بهذا المنهج الموضوعى - أن يعرض من خلالها لقضايا عديدة كتوحيد الله، وتعظيمه، وتنزيهه، وجلاله، ورحمته، وآلائه فى الدنيا والآخرة، ولرسالات الله ولرسله وملائكته وكتبه، وللجن والشياطين، ولما هية الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وللثواب والعقاب، كما عرض لقضايا التعذيب الروحى والخلقى، وللعلاقات الاجتماعية المختلفة، ولتحرير الإنسان من الهوى والخرافة، والآثام، ولاستغلال الإنسان لعقله وكشفه لأسرار الكون وقوانينه، وإيقاظ مشاعره ووجدانه والسمو به إلى الكمال الإنسانى المنشود، ويضيق بنا المقام عن التمثيل لذلك العمل العظيم.

* * *

وكأثر من آثار اهتمامه بالتفسير، وعلوم القرآن تطرقت جهود شوقى ضيف الإسلامية إلى علم القراءات،ذلك العلم الدقيق الذى يحكم تلاوة القرآن وترتيله وتفسيره وتأويله، والعمل بأحكامه، ومعلوم أن رسول الله ﷺ، كان يتلو آيات الكتاب الحكيم على صحابته فغ نزولها ويقوم بتفسيرها لهم ثم يقومون بعد فهمها بحفظها وتلاوتها، فى الصلوات ومختلف العبادات، وقد يكتبها بعضهم، فكان منهم - رضوان الله عليهم - من حفظ القرآن كله، ومن حفظ أكثره، ومنهم من حفظ بعضه، ومعلوم أيضًا أنه صلوات الله عليه، كان يتلوه باللهجات المختلفة للقبائل تيسيرًا عليهم وتخفيفًا، ونتيجة لذلك كانت قراءة الصحابة للقرآن، تختلف من قبيلة لأخرى حتى أنكر عمر ذلك على بعضهم، فقال ﷺ «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه». وهو لا يريد بالسبعة عددًا معينًا، إنما يريد كثرة الحروف واللهجات التى نزل بها تسهيلًا على العرب أن ينطقوا من كلماته بلهجاتهم، مالا يمكنهم أن ينطقوه بلغة قريش ولهجتها الخاصة.

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واستمر القتل فى حرب الردة بالقراء، وافق أبو بكر على اقتراح عمر - رضى الله عنهما - بكتابة القرآن فى مصحف واحد، فجمع الحفظة المتقن، برئاسة زيد بن ثابت وأحضروا كل من كتبوه بين يدى الرسول ﷺ وبإملائه، وأمر أبو بكر زيدًا بأن يكتب القرآن كله على الترتيب الذى تلقاه هو ومن معه عن الرسول بنفس

الألفاظ والحروف، والصورة التى تدارس فيها الرسول القرآن مع جبريل بعد تمامه فى العرضة الأخيرة.

وهكذا كتب القرآن الكريم فى قطع الجلد، وظلت صحفه عند الخليفة الأول، ثم آلت إلى عمر وانتهى بها المطاف إلى ابنته أم الممنين حفصه.

وقد ظل الناس يقرءون القرآن ويقرئ بعضهم بعضا بالحروف، التى تلقوها عن الرسولﷺ أو عن الحفظة المتقنين من الصحابة. وكان هؤلاء يختلفون فى بعض الآداء حسب سماعهم من الرسول ﷺ، وتفرق المسلمون فى الأمصار مع الفتوح فاشتد هذا الخلاف فى الأداء، واتسع إلى أن لوحظ بشكل واضح، ومفزع فى غزو أذربيجان وأرمينية إذ اجتمع أهل الشام والعراق فيه، واستمع بعضهم إلى بعض، فوجدوا وجوهًا من الخلاف فى القراءة فتنازعوا، حتى كاد يكفر بعضهم بعضًا ففزع حذيفة بن اليمان - وكان حاضرًا - إلى الخليفة عثمان ليدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان لتوه إلى السيدة حفصة أن أرسلى إلينا بصحف القرآن ننسخها ونردها إليك بعد ذلك، فأرسلتها إليه فأمر زيد بن ثابت أن ينسخها فى المصاحف، وعين له مساعدين فى مهمته، وأوصاهم بأن يكتبوا ما اختلفوا فيه بلسان قريش، فكتبوا ثمانية مصاحف، وجه بمصحف منها إلى البصرة، وبآخر إلى الكوفة، وبثالث إلى الشام، وبرابع إلى مكة وبخامس إلى اليمن، وبسادس إلى البحرين، وترك مصحفا بالمدينة، وأمسك لنفه آخر سمى بالإمام، وأمر بإحراق ما دون تلك المصاحف، حتى لا يدع فرصة لأى خلاف ممكن، وشدد على القراء فى كل الأمصار بأن يتمسكوا بتلك المصاحف يقرئون الناس على حروفها، وقد استجاب الناس لندائه وحرصوا عليه، وعلى الرغم من هذا فإن الأساس فى تلاوة القرآن، لم يتحول يومًا إلى الاعتماد على المصحف المكتوب، وظل الاعتماد على الرواية بالسند الصحيح المتواتر عن رسول الله ﷺ إلى صحابته وإلى التابعين، وهكذا جيلًا بعد جيل يتجرد المسلمون فى جميع الأمصار لتلاوة القرآن، وضبط تلاوته، والعنناة بها، وبتلقيها الشفوى المروى بالتواتر، وهكذا صارت قراءة القرآن سنة يتبع فيها الخالف السالف.

ولما كان مصحف عثمان يخلو من النقط والشكل فإنه استوعب جميع القراءات المتواترة عن الرسول ﷺ، ولا يعنى هذا أن تلك القراءات ترجع إلى طبيعة خط المصحف العثمانى المجرد من الإعجام والشكل، وإنما يعنى أن القراءات ليست إلا روايات نقلت بالتواتر عنه ﷺ، وليست اجتهادًا فى قراءة خط المصحف العثمانى، ومعنى هذا أيضًا أن القراءات أقدم من هذا الخط،وأنه لا عبرة له فيها ولا صلة لها به، فأساس القراءات السماع والمشافهة وليس الخط والكتابة.

وقد مضى الصحابة يتلون القرآن كما سمعوه من النبى ﷺ، أثناء صحبتهم له، وتتردد فى كتب القراءات، والتفاسير أسماء عشرات منهم، وعنهم رواه بقراءاته التابعون، ونب أعينهم المصحف العثمانى، وقاموا فى ذلك مقام الصحابة الذين تلقوه شفاهًا عن الرسول ﷺ، فهم يلتزمون بما أقرءوهم به حرفًا حرفًا، وحركة حركة، واشتهر منهم فى كل بلد ومصر جماعة، كانوا يقرئون الناس ويأخذون القراءة عنهم آية آية وكلمة كلمة وحركة حركة، وتكاثر فى كل مصر من الأمصار خلفاء هذا الجيل الأول من التابعين.

ولم يكن علماء القراءات قد تواضعوا على أئمة بأعيانهم، يحملون عنهم وحدهم القرآن، وظل ذلك إلى أن ظهر ابن مجاهد الذى حقق شوقى ضيف موسوعته الضخمة، المعروفة بكتاب السبعة فى القراءات.

وكان كثيرون قد مضوا يحملون عن كل قارئ ثقة قراءاته، ويعلمونها الناس فى زمنه، وبعد زمنه، وحاول نفر من علماء اللغة والنحو أن يتميزوا بقراءة خاصة على نحو ما حاول الفراء مما جعل هؤلاء الأئمة يتكاثرون، فيصنف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ كتابًا يجمع فيه قراءات خمسة وعشرين إماما سوى السبعة المشهورين، الذين أقامهم فيما بعد ابن مجاهد المتوفى ٣٢٤هـ، ثم يؤلف بعده أستاذه القاضى إسماعيل البغدادى المتوفى ٢٨٢هـ كتابًا يجمع فيه قراءات عشرين إمامًا، ويصنف ابن جرير الطبرى المتوفى ٣١٠هـ كتابًا يجمع فيه راءات نيف وعشرين إمامًا.

وقد بذل القراء منذ القرن الثانى الهجرى جهودًا عظيمة، فى تأليف تلك المصنفات المختلفة فى القراءات وفى قراءة كل إمام، وأن يميزوها عن غيرها بخصائص وشارات، من حيث الإدغام والإمالة والاختلاس وتحقيق الهمز وتسهيله، والإشمام وما إلى ذلك، وكلما تقدمنا مع الزمن فى القرن الثالث، كثرت التآليف فى القراءات، ولكن هذه المؤلفات العديدة المتابعة عن القراءات والقراء. لم تستطع أن تكف السيل فقد تكاثر الأئمة وتكاثر حمل القراءات عنهم، بحيث أخذت الطرق إليهم تتعدد تعددًا واسعًا، على اختلاف حظوظهم من الأنفال، فكثرت الخلافات والمراتب، الأمر الذى حتم أن يتجرد عالم من علماء القراءات أو طائفة منهم، ليقابلوا بين القراءات العديدة التى شاعت فى العالم الإسلامى، ليستخلصوا فيها للناس قراءات يحملونهم عليها، حتى لا يتفاقم الأمر ويلتبس الباطل بالحق، وتصبح قراءة القرآن فوضى لا ضابط لها.. وقد تجرد للنهوض بهذا الأمر إمام القراء ببغداد ابن مجاهد، وهو جهد تنوء به جماعات العلماء من القراء الأفذاذ.. فاختار بعد البحث والفحص سبعة من الأئمة حمل عليهم

المسلمين فى جميع أقطارهم، وأمصارهم فأدرك الأمة قبل أن يتسع الخلاف فى قراءة كتاب الله العظيم.

وما وقفنا هذه الوقفة الطويلة عند علم القراءات، وما وصل إليه أمرها من اتساع وشتات إلا لندل على أهمية ذلك العمل، الذى نهض به ابن مجاهد، وبالتالى ضخامة الجهد الذى نهض به شوقى ضيف، فى تحقيقه وتوثيقه وخدمته، بحيث زود المكتبة العربية بموسوع فى القراءات كانت مفتقرة إليها.

وقد قدم العلامة المحقق لعمله بمقدمة ضافية احتجناها فى وقفتنا تلك، وزاد على ذلك تعريفا دقيقًا وعميقًا بصاحب الكتاب، وبجهوده فى جمع المسلمين على تلك القراءات المختارة، ثم عرف بالأئمة السبعة.

ويهمنا فى هذا المقام ألا يفهم أحد أنه يعنى بالقراءات السبعة التى اختارها عن هؤلاء الأئمة السبعة الحروف الواردة فى الحديث النبوى الشريف، فيكون بذلك قد أبطل سواها من القراءات، وهو لم يفعل فى الحقيقة بدليل تأليفه كتابه فى الشواذ.

ثم قام المحقق بعد ذلك بإثبات مناقشة ابن مجاهد لأصحاب القراءات السبعة ورواتهم، وانتقل بعد ذلك إلى توثيق الكتاب توثيقًا علميًا دقيقًا، وانتهى إلى وصف نسخة الأصل، وعرض لمنهجه فى تحقيق الكتاب بعد ذلك.

وهو عمل جليل الفائدة لأنه يقفنا على جهد إمام عظيم، من أئمة القراء فى الأمصار الإسلامية فألف عليها سفره النفيس هذا، وبين اختلافهم فى القراءة، وعرض لقراءاتهم وأئمتها، وعرف بأساتذتهم الذين تلقوا عنهم الكتاب الكريم واصلاً بينهم، وبين الرسول ﷺ، ويكفيه فخرًا أنه هو الذى وضع الأسس الثلاثة فى قبول القراءات، وهى كونها مطابقة لخط المصحف العثمانى، وكونها صحيحة السند حملها رواة موثقون حتى زمن القارىء، ثم موافقتها للعربية بوجه من الوجوه.

وطبيعى أن جهود شوقى ضيف فى تذليل هذا العمل وتيسير انتفاع الناس به أمر نحسب أنه مخور له عند الله، فضلاً عن كونه مقدرًا له عند كافة المنتفعين به.

* * *

وقد أسهم شوقى ضيف بجهود أخرى عظيمة فى خدمة تراث الإسلام بتحقيقه لكتاب ابن عبد البر «الدرر فى المغازى والسير»، وكتاب ابن سعيد المغربى «المغرب فى حلى المغرب» وغير

ذلك من الآثار التى يضيق عن ذكرها المقام، فضلاً عن عنايته بتوجيه تلاميذه فى الدراسات العليا إلى موضوعات إسلامية عديدة فى علوم القرآن، والتفسير، والحديث النبوى الشريف ووجوه الإعجاز القرآنى والتأريخ للأدب الإسلامى وتحليل ظواهره المختلفة، بحيث صارت له مدرسة كبيرة ممتدة بامتداد الوطن العربى والإسلام.

وما هذا الذى ذكرناه عن جهوده الإسلامية إلا غرفة بيد قاصرة من ينبوع علمه الفياض.

ا. د. النعمان القاضى
أستاذ الأدب العربى
كلية الآداب - جامعة القاهرة